٥٠ اللمعات، ص ٥٦٠

٥١ سورة الحج، آية ١٨

٥٢ الكلمات، ص ٤٠٣

٥٣ سورة الانبياء، آية ٨٣

٥٤ اللمعات ، ص ١٠

٥٥ اللمعات، ص ١١

٥٦ سورة الانبياء، آية ٨٧

٥٧ اللمعات، ص ٧

٥٨ إشارات الاعجاز، ص ١٤٩.

العلاقة بين الاسباب والنتائج في رسائل النور

د. يامنة مرمر *

اقرأ باسم ربك الذي خلق

كلنا نعرف قصة نزول الوحي الاول على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حيث جاءه في غار حراء الذي كان يقصده دوماً بغية الابتعاد عن المشاغل اليومية والاستغراق في تأمل عميق. وقبيل تبليغ اوامر ربه قام حامل الوحي جبريل عليه السلام يغط النبي حتى كاد ان يزهق انفاسه ثم نقل اليه امر ربه "اقرأ"، وازاء هذا الامر رد محمد الامين صلى الله عليه وسلم وهو قابع بمفرده في الغار يتعبد ربه الاحد بعيداً عن عبدة الاوثان رد قائلا "ما انا بقارئ" اي لا اعرف القراءة، ولكن جبريل لم يتركه وشأنه بسبب عدم معرفته للقراءة ، غطه ثانية حتى اوشك ان يحطم ضلوعه مكرراً قوله "اقرأ" ولكن ماذا يقرأ محمد العربي صلى الله عليه وسلم وهو في تلك الحالة من التعب والارهاق وكيف يقرأ؟ ولأنه لا يعرف القراءة بالشكل المتعارف عليه بين الناس لم يجد بداً من ترديد نفس الجواب "ما انا بقارئ" غير ان جبريل الامين الواثق من معرفة النبي صلى الله عليه وسلم التامة "للقراءة" الحقيقية احتضن احب خلق الله وغطه مرة اخرى وهو ينقل اليه الوحي الاول "اقرأ باسم ربك الذي خلق" الذي يُعلِّمُ ما المراد بالقراءة وكيفية القراءة وما الذي يجب قراءته.

وهكذا وابتداءً من نزول هذا الوحي تولى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي اعتقدنا عدم معرفته للقراءة بسبب فهمنا اياها على انها قراءة نصوص مكتوبة فحسب، تولى والى يوم الدين مهمة تعليم القراءة للناس جميعاً ١

ان المقصود من وراء هذا الحادث الذي يعرفه الجميع يبدو لي في غاية الوضوح . فالآية الجليلة "اقرأ باسم ربك الذي خلق" التي نزلت في الوحي الاول تشير بكل وضوح الى ما سيقوم بتعليمه لنا الرسول الذي لم يكن يعرف قراءة المكتوب فوق صحائف الرق. ووفق الدرس الذي تلقته من المعلم الاكبر عليه الصلاة والسلام فان رسائل النور التي لم تحد قيد انملة عن تعاليم واحكام القرآن المبين تقوم وبالاستناد الى امثلة واسلوب التكرار القرآنية بشرح ما ولماذا وكيف نقرأ

باسم ربنا الذي خلق وذلك بشكل يفهمه الناس من كافة الطبقات.

قراءة الكون

يجري ذكر كلمة "السماوات" في القرآن الكريم ٢١٠ مرات و "الارض" ٤٥١ مرة و "الخلق" ٢٦٢ مرة و "الآية" ٣٨٢ مرة قسم ضئيل منها بمعنى الآية القرآنية، ويشير الكتاب الكريم الى انها ايات وشواهد تدل على الخالق ويأمرنا القرآن بقول "فانظروا، أفلا ينظرون، أفلا يتفكرون" الى التمعن في الكون والخلق. في رسائل النور التي تتبع خط القرآن الكريم بدقة وعن كثب تطالعنا باستمرار عبارات مثل "انظر الى ما حولك وتمعن في كل شئ" و "لا نرى باعيننا انه.." و "كل انسان يملك قدراً من الحس والشعور يجد كلما فتح عينيه انه..." وبجانب هذه العبارات يجري شرح كيفية قراءة كل شئ على انها آيات ودلائل تشير الى خالقنا . وهذا اسلوب تعليمي لكيفية قراءة كل شئ باسم ربنا الذي خلق. وتؤكد عبارة "وفي كل شئ له آية تدل على انه واحد" التي تطالعنا باستمرار في اماكن متعدد في رسائل النور وكأنها معادلة علمية تشير الى ان كل مخلوق يشهد على وجود الواحد الاحد، تؤكد سيرها في خط القرآن الكريم.

ويعلمنا القرآن كيف نقرأ الخلق وكيف نعرف انه يدل على وجود ووحدة الله بهذه الآية الكريمة ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب وفي سبيل تحقيق هذه القراءة يمدنا الله في هذه الآية بمفتاح مهم حيث يقول و "في خلق" اي ان علينا التمعن في شكل الخلق.

في المدارس علمونا ان النباتات تقوم بنفسها بانتاج غذائها وهو ما يسمى بعملية التركيب الضوئي. دعونا نترك جانبا فكرة "المقبول المسبق" للانتاج الذاتي التي طبعت في ادمغتنا ولنمعن النظر سوياً في كيفية انتاج الغذاء اي في شكل خلق الغذاء. اذا اخذنا أية ورقة خضراء وسحقناها بين اصبعنا فاننا نجد ان اصابعنا قد تلونت باللون الاخضر. ويطلق على المادة التي تسبب اللون الاخضر هذا اسم الكلوروفيل. وهذا الكلوروفيل المؤلف من ذرات الكاربون والهيدروجين والاوكسجين والنتروجين والمغنيسيوم يعمل كمصنع للأغذية يأخذ الضوء من الشمس ويسحب الماء من جذور النباتات محققاً بذلك انتاج الهيدروجين والاوكسجين ومستودع الطاقة المسماة "A.T.P" ثم يزفر الى الجو الاوكسجين الذي يعتبر مهماً جداً للاحياء. هذه التفاعلات تؤلف المرحلة الاولى من عملية التركيب الضوئي. المرحلة الثانية تبدأ بقيام مستودع الطاقة مع الهيدروجين بسحب ثاني اوكسيد الكاربون الذي يعتبر ساماً بالنسبة لنا من الهواء منتجاً بذلك السكر الذي يستخدم جزء منه لادامة حياة النبات اما الباقي فسيتخدم لانتاج النشأ والكاربونات والبروتينات. وعليه يتم من جهة تنقية الهوآء من السموم وانتاجة الغذاء اللازم للانسان والحيوانات من جهة ثانية. اعتقد الان انكم ستحكمون على عملية التركيب الضوئي بالتعقيد على ضوء المعلومات التي اوردناها اعلاه. في الحقيقة فان عملية التركيب الضوئي عبارة عن سلسلة عمليات معقدة اكثر بكثير مما قدمنا سالفاً. وقد منحت جائزة نوبل للكيمياء لعالم يدعى "كالفن" وينتمي لطائفة رجال العلم الذين يسعون منذ مئات السنين للتوصل الى اسرار الكون، منحت له الجائزة لمجرد كشفه لنظام التفاعلات الكيماوية التي تحدث في المرحلة الثانية من هذه العملية. فاذا كانت جائزة نوبل تمنح لمن يكتشف جزءاً بسيطا من عملية التركيب الضوئي فما هي يا ترى الجائزة التي يجب منحها لمن اسس هذا المصنع الصغير الذي تعجز العين المجردة عن رؤيته.

الفوائد التي نجنيها من عملية التركيب الضوئي هي بايجاز كالآتي: تنقي الهواء الذي يعتبر ضرورياً لجميع الأحياء من ثاني اوكسيد الكاربون وتنفث الاوكسجين في الجو وتنتج الغذاء اللازم لادامة حياة الاحياء. كل هذه العمليات تجري باقصر الطرق واقلها كلفة ومن دون وقوع أية خسائر واضرار منتجة الذ واجمل الوان الاغذية. هذه النتائج الهامة والفوائد الجمة لا يمكن حدوثها باي حال من الاحوال الا بمشيئة وقصد، وعليه يستلزم ان يكون هناك تخطيط مسبق لهذه النتائج ويتعين لوضع

مثل هذا التخطيط معرفة جميع الحيوانات والانسان والوقوف على احتياجاتهم ثم الاشفاق عليهم، كذلك فان اعداد الاغذية اللذيذة ذات النكهات الطيبة والمنظر الجميل وهي صفات تتعلق بحواس الانسان يتطلب ان يكون المخطط عطوفاً عليهم. ولتحقيق جميع هذه الغايات يتطلب ما يلي:

١- معرفة جميع العناصر المستخدمة في عملية التركيب الضوئي حق المعرفة وبادق تفاصيلها بشكل يوازي المعرفة التامة لخصائص وتأثيرات ضوء الشمس والماء والهواء.

٢- الوقوف التام على كافة النباتات بسبب الاختلاف الموجود في خواصها ونظمها.

٣- المعرفة الكاملة باجسام وخصائص الاحياء التي تستخدم الاغذية المعدة وكيفية مساهمة هذه الاغذية في نمو تلك الاجسام دون الاضرار بها.

٤- امتلاك قدرة تامة بامكانها الاشراف على مجموع هذه العمليات واصدار الاوامر هذه القدرة متكاملة تشمل الماء والهواء والعناصر الموجودة في التربة والانسان والحيوان والشمس كذلك.

اجل ان من يمتلك هذه الميزات جميعاً بامكانه فقط الاعداد لعملية التركيب الضوئي وتجهيز الاغذية الضرورية لنا. وبكلمة اوضح ليس بمقدور احد ان يحقق هذا العمل الا من له علم وارادة غير محدودة.

وعلى هذا الاساس فاما ان جميع العناصر الداخلة في عملية التركيب الضوئي والاسباب المتعلقة بها تعمل وفق اوامر وارادة صاحب علم وقدرة لا نهائية او ان كل واحدة منها تملك علماً وقدرة ذاتية لا نهائية لكي تستطيع القيام بهذه العملية المتكاملة من جميع النواحي دون اي خطأ وفي الوقت والمكان الصحيحين.

وكل ذي عقل يعرف ان الكاربون والهيدروجين والاوكسجين والماء وضوء الشمس لا تملك حتى ولا ذرة علم وارادة وقدرة ورحمة بل انها مجردة من الاحساس والشعور والارادة وعاجزة عن القيام باي عمل مثلما تقول الآية الكريمة.

ألهم أرجل يمشون بها ام لهم أيدٍ يبطشون بها أم لهم اعين يبصرون بها أم لهم اذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تُنظرون.

العلوم المادية ذات حكم مسبق وتؤلّه الاسباب

من الواضح جداً ان جميع هذه العناصر لا تملك أية ميزات تخصها مباشرة وتمتلكها بذاتها، فلماذا اذن تذكر كتب العلوم انها تقوم بهذه الاعمال بنفسها؟ "النباتات تنتج غذاءها بنفسها"، "يقوم الكلوروفيل بامتصاص الطاقة الكامنة في ضوء الشمس ويعمل مركب الـ أي . تي. بي بخزن قسم من هذه الطاقة في داخله". "يقوم القسم الاخر من الطاقة بتجزئة الماء الى ذرات الاوكسجين والهيدروجين" بهذه العبارات التي نلاقيها بكثرة في الكتب المذكورة يرمي الماديون الى ترسيخ مزاعمهم القائلة بان النبات والكلورفيل والـ أي . تي. بي والطاقة الشمسية هي التي تقوم بهذه العمليات بنفسها.

هذه الكتب معدة من قبل الماديين من رجال العلم الذين يرفضون مسبقاً قبول وجود خالق خلق كل شئ في الوجود وينظرون الى العالم على انه خال من الخالق ويتشبثون بالنظام داخل هذا الكون الذي صنع كل ما فيه بمنتهى الدقة. وبما ان النظام هو خلق سبب معين مع نتيجة معينة سوياً فان هؤلاء يعنون فقط بملاحظة السبب الى جانب النتيجة. وبسبب نظرتهم الى الاحداث من خلال منظار الرفض المسبق لوجود الخالق فانهم يضطرون للزعم بان الاسباب هي التي تصنع النتائج. والكمال الموجود في النتائج يدفعهم في مثالنا اعلاه الى الزعم بان الكلوروفيل والطاقة الشمسية والماء وغيرها تملك علماً وارادة وقدرة ورحمة وامثالها من الصفات اللامتناهية . ومثل هذا الزعم هو وبدون اي شك تنسيب صفة الالوهية على

الاسباب.

دعونا من مزاعم صفات الالوهية فحتى القول بامتلاك الاسباب قوة وارادة وتأثيراً وهي التي لا تملك عقلاً ولا شعوراً ولا ارادة ولا قدرة - ومحتاجة الى الايجاد - بل حتى اسناد اصغر تأثير واضعفه وهو نتيجة الارادة والقدرة - اليها ليس الا هذيان محموم لعقل مختل ٢.

وفي هذه الآية الكريمة يبين لنا القرآن الكريم استحالة اضفاء صفة الالوهية على الاسباب واتخذوا من دونه الهةً لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حيوة ولا نشوراً ''الفرقان: ٣'' فلو كان هناك حقاً كائن غير الله يملك صفات الالوهية لكان قد تدخل في الخلق والربوبية ولكان نظام الكون قد فسد. غير ان وجود نظام في منتهى الدقة والكمال في كل شئ من اصغر خلية في جناح أو بؤبؤ عين ذبابة الى نظام المجرات يشير من جهة الى عدم تأثير الاسباب ويشهد من جهة اخرى وباوضح شكل على وجود ووحدانية الله.٣

استناد العلوم المادية على الفرضيات السلبية

لم يتمكن رجال العلم في أي وقت من الاوقات وباي شكل من الاشكال من البرهنة على تمخض النتائج من الاسباب ولن يتمكنوا من البرهنة عليه ابداً. ورجال العلم هؤلاء متيقنون بانفسهم من هذه الحقيقة ، لذا فانهم يزعمون انه حتى لو لم تتم البرهنة على تمخض النتائج عن الاسباب او حتى لو برهن مبدأياً على عدم التمخض فان فكرة تمخض النتائج عن الاسباب سوف تستمر في مصداقيتها بسبب عدم تمكن احد الى الآن من اثبات العكس.

ولنعد الان الى مثالنا السابق فالماديون يقولون بان الاسباب كضوء الشمس والماء والهواء.... الخ هي عناصر مؤثرة في عملية تكوين الغذاء. وللبرهنة على هذا الزعم يقولون بان اي نبات سوف يصغر ويذبل اذا ما منعنا عنه الماء او ضوء الشمس مثلاً اي عدم حدوث عملية التركيب الضوئي وبالتالي عدم انتاج الغذاء ويؤكدون استحالة تكون الغذاء دون الماء وضوء الشمس وعليه فان الماء او ضوء الشمس هو الذي يكون وينتج الغذاء، وهكذا يعتقدون انهم قد برهنوا على صحة نظريتهم تلك.

اذا ما تمعنا النظر نجد ان هذه النظرية او بالاحرى الفرضية سلبية ولا تشكل برهاناً واثباتاً ٤ لنأخذ مثلا جهازاً تلفزيونيا، فاذا ما ضغطنا على زره تظهر امامنا المشاهد على الشاشة اما اذا لم نضغط على الزر فسوف لن يظهر اي شئ على الشاشة. وبموجب المنطق السلبي للماديين من رجال العلم فان المناظر والمشاهد المنعكسة على الشاشة هي من صنع ذلك الزر، والبرهان على ذلك هو عدم ظهور اي منظر بدون الضغط علىه. فلا يفكرون ان البث هو من خارج الجهاز وان الذي يقوم بالبث ليس هو ذلك الزر. فالزر هنا هو فقط جزء من النظام الموجود داخل جهاز التلفاز وصانع الجهاز قد تقصد وضع الزر هناك لظهور المشاهد والمناظر على الشاشة . فلو اتى شخص يقول انه اذا لم تكن تصدق ان الزر هو الذي يصنع المشاهد فلنر كيف تظهر اذا لم تضغط عليه، أفيكون هذا الكلام منطقياً؟ ان نظام ومخطط التلفزيون قد جعل من المستحيل تشغيل الجهاز بدون هذا الزر لانه صنع على هذا الاساس. فاذا لم يعمل الجهاز دون استعمال الزر واتى هذا الشخص وهو يقول : الم أقل لكم ان الزر هو الذي يصنع المناظر فلن نملك غير الضحك والاستهزاء به ٥

من هو خالق النظام الموجود؟

عندما يتعذر الوصول الى النتيجة في حالة غياب سبب من الاسباب فان هذا لا يعتبر دليلاً البتة على انتاج ذلك السبب للنتيجة بل يمكن فقط قبول فكرة ظهور نتيجة معينة سوية مع سبب معين ٦ وهذا برهان على قيام علاقة السبب - النتيجة داخل نظام محدد.

يدعي الماديون ان ضوء الشمس هو الذي يصنع الغذاء بسبب استحالة صنعه بدون هذا الضوء قائلين: من يدعي عكس هذا فليقم بعملية التركيب الضوئي بدون ضوء الشمس.

لقد خلق الكون وفق نظام دقيق يدل على شكل خلق الخالق وسنته في الخلق. ويستمر هذا النظام طيلة عدم قيام الخالق بتغيير سنته ٧. وخلق التركيب الضوئي مع ضوء الشمس هو مظهر من مظاهر هذا النظام حيث ان الخالق قام بخلقهما سوية واضعاً بهذا الشكل نظام صنع وانتاج الغذاء. فعملية التركيب الضوئي لا تتم بدون الضوء فكيف يجري البحث عمن يحققها بدونه، وليس من المعقول اثبات المعدوم وغير الموجود . فالمسألة هي من صنعَ الموجود أي اثبات صانع عملية التركيب الضوئي بضوء الشمس في مثالنا هذا.

القرآن الكريم لا يقول بان الله يخلق بدون وجود الاسباب، ماذا يقول اذن؟ يقول بان الله عزوجل هو الذي خلق الاسباب والنتائج وربطهما ببعض وفق نظام معين، ويقول ايضاً بانه هو خالق ضوء الشمس والكلورفيل والغذاء جميعاً وان من يدعي العكس فان عليه قبول فكرة امتلاك ضوء الشمس علماً وارادة وقدرة ورحمة لا نهاية لها في سبيل صنع الغذاء وان من المستحيل عليهم اثبات شئ كهذا.

ام اتخذوا من دونه الهة قل هاتوا برهانكم ‘‘الانبياء:٢٤’’

ولِنُعدِ الان الى الاذهان الحوار الفكري الذي جرى بين ابراهيم عليه السلام ونمرود حول النظام الالهي. فعندما قال نمرود ‘‘ انا أحيي وأميت’’ رد ابراهيم عليه قائلاً : فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر لذا يجب علينا ان نحيط بدرس التوحيد الذي يقدمه لنا القرآن احاطة تامة وننظر الى الكون والكائنات جميعاً من هذا المنظار وبعكسه سنجد انفسنا وجهاً لوجه امام خطر تسرب الكفر والشرك الى ادمغتنا وافكارنا. ويتوجب علينا كتلامذة القرآن ان نأخذ من القرآن الدرس التالي: "ان خالقي يصنع من ضوء الشمس والماء وثاني اوكسيد الكاربون عشر انواع من الاغذية " ٨ وغيرها ثم نلتفت الى الذين ينكرون وجود الخالق ويزعمون قيام ضوء الشمس بصنع الغذاء اي صنع السبب للنتيجة، نلتفت اليهم قائلين: "هيا خذوا ضوء الشمس ودعوه يصنع الغذاء دون استخدام النظام الذي وضعه الخالق، لا تستعملوا اوراق الشجر مثلاً او دعوه يصنع اي شئ آخر، بل اجمعوا اذا احببتم الاسباب كلها وليس ضوء الشمس فقط واحصلوا على أية نتيجة دون الاستناد على النظام الالهي. فما دمتم تزعمون ان الاسباب هي القادرة على الصنع فاجمعوا اسبابكم واصنعوا بدوركم ذبابة دون الاعتماد على بيضة ٩

ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضَعُفَ الطالب والمطلوب ‘‘الحج: ٧٣’’.

لذا فان الاسباب لا تقدر على الخلق لانها هي بنفسها مخلوقة. فالاسباب لا تعدو كونها آيات ودلائل تُعرف بالخالق وتدل عليه" ١٠

القرآن يبرهن على التوحيد

لقد خُلق وفق نظام دقيق تظهر بموجبه جميع المخلوقات الى الوجود بنفس الظروف والشكل. هذه الظروف تستوجب تزاوج مخلوق مع مخلوق آخر نقوم بتقييمه على اساس علاقة السبب – النتيجة. وهناك احتمال كبير بقيام الانسان باستبعاد فكرة خلق السبب – النتيجة سوية في لحظة غفلة وضلال والانجراف الى الظن بصنع السبب للنتيجة. وانكار خلق الله للاسباب والنتائج هو انحراف عن الحق والحقيقة وخطأ لا يغتفر. والزعم تقصداً او بدون تقصد بان النتائج هي من نتاج السبب يعتبر شركاً بالله حتى في حالة قبول خلق الله للكون اجمع. وللحيلولة دون وقوع الانسان في شراك هذا الخطأ الفضيع فاننا نجد

القرآن يؤكد باستمرار وبوضوح تام عدم وجود اي كائن او شئ عدا الله يملك صفات الالوهية واستحالة تملك اي سبب ايا كان لميزات الصنع والخلق وتوزيع الرزق وانزال الماء من السماء وانبات اي شئ من الارض.

قل من يرزقكم من السماء والارض أمّن يملك السمع والابصار ومن يُخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الامر فسيقولون الله فقل افلا تتقون ''يونس : ٣١'' ١١

ويعلمنا القرآن من بدايته الى نهايته هذا الدرس ، لان الشرك هو اكبر خطر يمكن الوقوع فيه، فلا يمكن لاي انسان عاقل انكار وجود رب خلق السماوات والارض وخلقنا جميعاً. لذا فان الشيطان يحاول ايقاعنا في مصيدة الشرك اولا وليس الانكار . ولهذا السبب فان القرآن يحذرنا دوماً وباستمرار من دسيسة الشيطان هذه ويدعونا لعدم الحياد عن طريق التوحيد الواسع.

وقد بادرت رسائل النور وقبل كل شئ الى التأكيد على هذه النقطة التي انارها الكتاب المبين حيث سعت وبكل قوة لسد جميع الطرق المؤدية الى الشرك والتأكيد على كون الاسباب قد خُلقت فقط لحجب تجلي القدرة الالهية وانها لا تملك تأثيراً حقيقياً في مجال صنع النتائج. وهذه هي الحكمة الكامنة وراء التعبير بجميع الوسائل عن تملك الله الواحد الاحد فقط للتأثير الحقيقي . وتصادفنا في رسائل باستمرار عبارات مثل "ان الاسباب الظاهرية ما هي الا حجاب فحسب ولا تأثير لها حتى في الاختراعات. ولولا ارادة الله وامره ما تحركت ولا ذرة في الوجود عن مكانها قيد انملة" ١٢

ولو فكر الانسان ملياً في معنى الزعم بانبثاق النتيجة من السبب لعرف مدى ضخامة هذه الكذبة والفرية ١٣ وفي حالة عدم ربط نتيجة ما بالله الواحد الاحد مباشرة فانه يستوجب اضفاء جميع صفات الله على السبب الظاهر.

ان كل شئ في الكون مرتبط ببعض ولا يمكن لاي شئ ان يكون موجوداً الا ضمن المجموع كله لان من الضروري معرفة الكون كله وامتلاك قدرة الاشراف والمراقبة على كل شئ في الكون من اجل خلق اي شئ لكي يحتل مكانه داخل الكون بافضل شكل واكثره فائدة ولكي يعمل بانسجام وانتظام مع الموجودات الاخرى.

ولنأخذ الان مثالاً ورد في رسائل النور . فكل خلية موجودة في بؤبؤ العين لها وظائف وفوائد بالنسبة لاعصاب العين والشعيرات الدموية ووجه الانسان ورأسه وبقية جسمه وتجاه الناس الاخرين وكافة الموجودات المرئية. وليس بامكان اي كان وضع هذه الخلية في موضعها عدا الله الذي خلق بقية اعضاء الجسم. وبما ان للانسان وشائج قوية مع بقية الكائنات الموجودة في الكون فان بمقدور خالق الكون فقط خلق الانسان ١٤. كما يستوجب امتلاك ميزات لا حدود لها من اجل التمكن من خلق الكون. أفهل من الممكن تملك الاسباب لميزاتٍ كالعلم والارادة والقدرة والرحمة اللامتناهية؟ يقال مثلاً ان النباتات تصنع غذاءها، فما هي الميزات التي تملكها النباتات لتحقيق هذا الشئ ؟ هل يملك النبات عقلاً بمقدوره التخطيط لهذه العملية المعقدة؟ أم له عين يرى به ما حوله ليعمل بانسجام مع الاخرين؟ هل يملك النبات قوة يجبر بها الاخرين على الائتمار بامره؟ ام له قلب رقيق عامر بالرحمة ليقوم بخزن الغذاء الزائد لتقتات به بقية الاحياء؟ ١٥

ان الجواب على كل هذه الاسئلة هو وبكل بساطة كلا. فالنبات المسكين لا يملك لا عقلاً ولا حولا ولا رحمة.

والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون''النحل: ٢٠''.

اذن فكيف يقع العلماء من الحائزين على جوائز نوبل في مثل هذا الخطأ؟ الا يعرفون ان خلايا لا تحس ولا تشعر ليس بمقدروها القيام باعمال تجعل الانسان يفغر فاه من الحيرة؟ كلا بل يعرفون هذا خير معرفة ولكنهم كما ورد في رسائل النور "بما ان الزنادقة الكفار الماديون يرفضون فكرة الواجب الوجود فانهم يضطرون بناءً على مشربهم هذا الى تقبل وجود الهة

بعدد ذرات الاشياء . ولهذا فان الكافر الملحد يقع في ظلام دامس من الجهل المطبق مهما بلغ من العلم والفلسفة مكانة بل ويصبح من اجهل الجاهلين ١٦ . القائلون بصنع الاسباب للنتائج يضطرون الى اضفاء صفات الالوهية على الاسباب ليس لكونهم يؤمنون حقاً بالوهيتها بل بسبب عنجيتهم ورفضهم قبول فكرة وجود رب واحد احد يرضخون لامره، انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين اشركوا مكانكم انتم وشركاؤكم فزيّلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم ايانا تعبدون، فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم ان كنا عن عبادتكم لغفلون.

الاسباب والنتائج تدل على الاسماء الحسنى

لقد اقيم نظام بشكل يدلنا على خالقه، وضمن هذا النظام يُخلق كل سبب مع نتيجته سوياً وفق مخطط دقيق والفوائد يتوخى فوائد وغايات جمة. ويدلنا القرآن الكريم على الغايات الحكيمة والفوائد المهمة المتوخاة من وراء هذه النتائج لكي ينجلي مدى عجز الاسباب المعدومة الشعور عن استهداف وصنع هذه الغايات والفوائد ولكي يعرف الانسان ان هذه الاسباب ليست غير أحجبة فحسب وان تلك الغايات والفوائد لا يمكن ان تظهر الى الوجود الا بفضل عالم قادر حكيم يمتلك علماً وحكمة ومقدرة لا متناهية.

ويقوم القرآن الكريم بخلع الاسباب عن عرش التسلط والتملك على النتائج فاتحاً الهوة بينهما في سبيل تعريفنا على الرب باسمائه الحسنى. وتتبع رسائل النور الاسلوب القرآني هذا في شرحها للاسماء الالهية داخل هالة قرآنية.

عندما نقوم بالقاء نظرة على الافق البعيد نجد السماء وكأنها ملتصقة بالتلال البعيدة، غير اننا اذا تسلقنا تلك التلال نرى المسافة الهائلة الكائنة بين السماء والارض. وكما في مثالنا هذا فان الاسباب والنتائج تبدو متلاصقة ببعض عند النظر اليها بشكل سطحي من بعيد، غير ان الهوة العميقة القائمة بينهما تبدو جلية وواضحة عند الاقتراب اي عند التمعن في ميزات السبب، وبكلمة اخرى يظهر عدم وجود اي تأثير للسب الذي يبدو في النظرة الاولى المؤثر الاكبر في صنع النتيجة التي تبدو وكأن لا دور لها في الموضوع . فكل شئ هو وبشكل مباشر اثر من اثار معجزة القدرة الالهية. فالسبب لا يملك الشروط الاساسية لحصول النتيجة كالعلم والارادة والقدرة للامتناهية ولا توجد هناك اية وشائج من شأنها التأثير والارادة والقدرة اللامتناهية ولا توجد هناك أية وشائج من شأنها التأثير المتبادل بين السبب والنتيجة بل انهما قد خلقا جنباً الى جنب بموجب خطة خطت بحكمة الخالق. واذا ما تم الانتباه الى هذه الخطة وعُزل التأثير عن النتيجة فسوف يظهر الى العيان بكل وضوح ان ما من شئ في الوجود الا معجزة من معجزات الله . ولو اجتعت الاسباب كلها فلن تقدر حتى على صنع ذبابة او اصغر منها. فكل ذبابة معجزة تعجز عنها جميع الاسباب، لان المعجزات ليست احداثا تقع خارج النظام العام للكون مهما اطلق عليها انصار مذهب السببية الملتزمون بالسبب مثل ديكارت اسم "احداث عادية" فالمعجزة تعني حدثا تقف امامه جميع الاسباب عاجزة. وبما ان الاسباب كافة تعجز عن صنع ولو ذبابة صغيرة فان كل ما في الوجود هي معجزة من معجزات خالقنا الاوحد.

وادراك المسألة بهذا الشكل ينقذنا من الوقوع في خطأ الظن بصنع الاسباب للنتائج، وهذا الخطأ ليس ببسيط لانه يعرضنا للوقوع في براثن خطر الشرك الذي يحذرنا القرآن منه باستمرار. ومقابل هذا فان معرفة اسماء الله بشكل تحقيقي لا تتحقق الا بالتخلص من هذا الوضع ورؤية جميع الاشياء كآثار فنية ومعجزات الهية صنعت مباشرة من قبل الخالق.

فكما يتضح عند صعودنا الى قمة مرتفع وجود مسافة شاسعة بين الارض والسماء تقع النجوم فيها فسوف يظهر بون شاسع بين السبب والنتيجة عندما يتضح لدينا عدم قدرة احدهما على التأثير على الاخر كما يقول بديع الزمان "ان الاسماء الالهية تسطع كالنجم في المسافة الشاسعة الواقعة بين السبب والمسَبَّبْ "النتيجة"١٧

ونلمس هذا الطريق والاسلوب في القرآن الحكيم من بدايته الى نهايته . وتقتضي رسائل النور نفس هذا الاسلوب القرآني بكل حذافيره. ونعتقد ان تقديم مثال حول هذه النقطة سيكون من شأنه تنوير المسألة بشكل اوضح. في سورة "عبس" يقوم القرآن الكريم بسرد معجزات القدرة الالهية بترتيب في غاية الحكمة ويربط الاسباب بالنتائج ثم يرشدنا الى غاية معينة في الختام بقول "متاعاً لكم" هذه الغاية تثبت وجود متحكم خفي داخل الاسباب والنتائج المتعاقبة وان الاسباب ما هي الا ستائر تحجب هذا المتحكم.

فلينظر الانسان الى طعامه، انّا صببنا الماء صباً ثم شققنا الارض شقاً فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلباً وفاكهة وأبّاً متاعاً لكم ولا نعامكم.

وعلى ضوء مثل هذه الآيات القرآنية تقوم رسائل النور بشرح كيفية التفريق وفتح فجوة بين السبب والنتيجة وسطوع الاسمآء الحسنى وانبثاقها من خلال تلك الفجوة او المسافة على الشكل التالي:

"نعم ان عبارة ‘‘متاعاً لكم ولانعامكم’’ تسلب جميع الاسباب من القدرة على الايجاد والخلق اذ تقول ما معناه ان الماء الذي ينزل من السماء لتهيئة الارزاق لكم ولانعامكم لا ينزل بنفسه لانه لا يملك قابلية الرحمة والحنان عليكم وعلى انعامكم كي يرأف بحالكم، فاذاً يُرسل ارسالاً . وان التراب الذي لا شعور له لانه بعيد كل البعد من أن يرأف بحالكم فيهئ لكم الرزق لا ينشق بنفسه بل هناك من يشقه ويفتح ابوابه ويناولكم النِعَمَ منه. وكذا الاشجار والنباتات فهي بعيدة كل البعد عن تهيئة الثمرات والحبوب رأفة بكم وتفكراً برزقكم فما هي الاحبال وشرائط ممتدة من وراء ستار الغيب يمدها حكيم رحيم علق تلك النعم بها وارسلها الى ذوي الحياة.

وهكذا فمن هذه البيانات تظهر مطالع اسماء حسنى كثيرة كالرحيم والرزاق والمنعم والكريم" ١٨

وباختصار "فان النتائج التي انيطت بالمسببات والغايات الناشئة والفوائد الحاصلة منها تظهر جميعاً بداهة ان وراء حجاب الاسباب رباً كريماً حكيماً رحيماً وان ما نراه من اشياء ليست الا من صنعه وابداعه سبحانه. لان الاسباب الخالية من الشعور عاجزة عن التفكير بالغايات المتوخاة بينما نرى ان اي مخلوق يظهر للوجود تناط به غايات وحكم وفوائد جمة وليست واحدة فقط. اي ان الرب الحكيم الكريم هو الذي يوجد الاشياء ثم يرسلها الى هذا العالم. والجمال الرائع المرتسم في النباتات والحيوانات وكأنه يبتسم بحبور بوجه الخلق يدلنا على وجود ووحدانية خالق ذو جلال خلف ستار الغيب يريد ان يُعرف ويُظهر نفسه ويحببها لخلقه. اذن فالتزيينات الرائعة الموجودة في الاشياء تدل قطعاً على صفتي التعريف والتودد . وهاتان الصفتان:

- التعريف والتودد تشهدان بالبداهة على وجوب وجود صانع قادر ودود ومعرف وعلى وحدانيته . وزبدة الكلام:

١- ان السبب الذي نراه شيئاً عادياً جداً وعاجزاً تمام العجز قد استند اليه مسبَّب في منتهى الاتقان والنفاسة. فهذا "المسبّب" المتقن لابد انه يعزل ذلك السبب العاجز عن القيام بايجاده.

٢- ان غاية كل "مسبّب" بل وحتى الفوائد المتوخاة منه تزيل الاسباب الجامدة والمطبقة الجهل وتسلمها ليد الصانع الحكيم.

٣- ان التزيينات المنقوشة على ملامح "المسبّب" وما يتجلى عليها من مهارة تشير الى وجود صانع حكيم يريد ان يُعرف قدرته الى ذوي الشعور من مخلوقاته ويحبب نفسه اليهم" ١٩

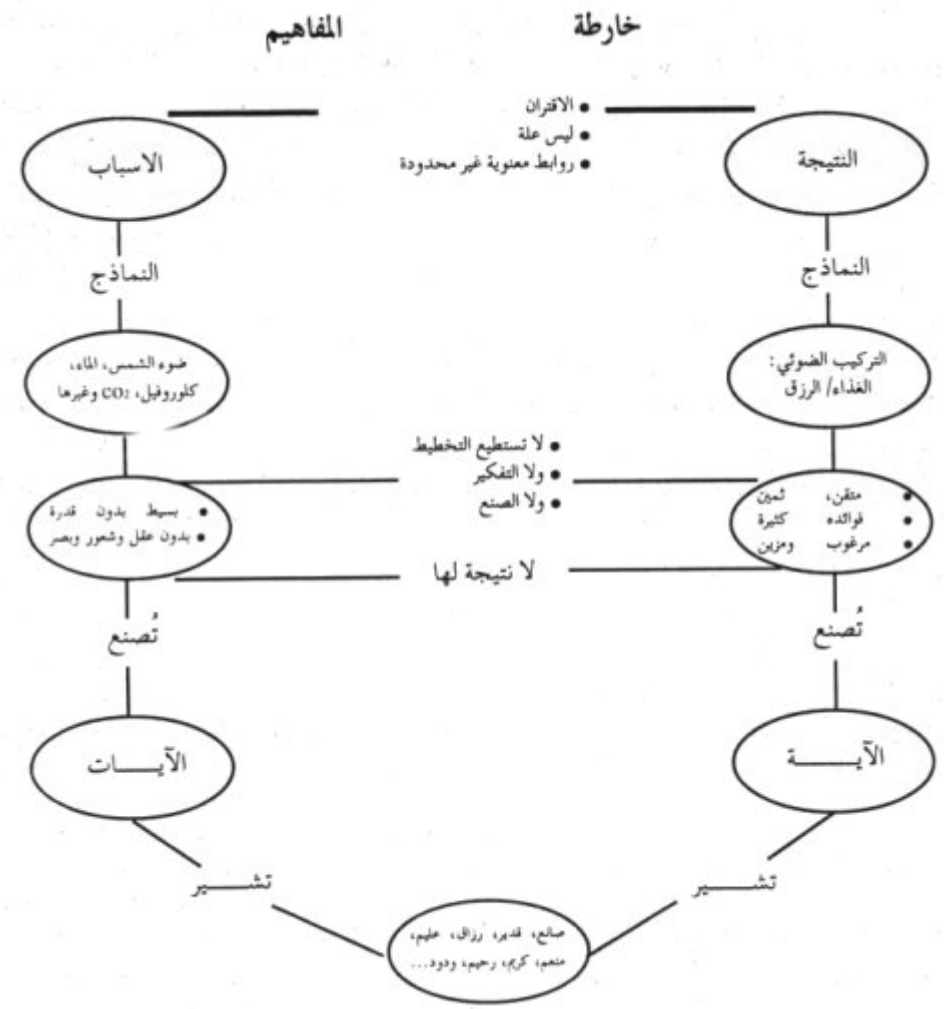

النتيجة

لقد خلق الكون لغرض تعريفنا بالخالق. وبامكان الانسان المفكر الوقوف على ميزات خالقه بالنظر الى شكل خلق الكائنات ٢٠. فقد خلق الانسان مزوداً بغريزة حب الاستطلاع والبحث عن اجوبة لاستفساراته المتعلقة بـ ‘‘من اين اتت المخلوقات والى اين تذهب وما هي مهمتها في الكون’’. وقد أُعد الكون ونظم بشكل تجد فيه جميع هذه الاسئلة والاستفسارات اجوبة شافية لها. وما دام هذا الكون الذي يشير كل من عليه الى معنى عميق ومحبة وفن وفائدة وما دام يعرفنا بالخالق باسمائه الحسنى، اذن فعلى كل من يعتمر الايمان قلبه درس الكون بادق تفاصيله ومعرفة الرب عن هذا الطريق والتصرف وفق الحكمة والغرض المتوخاة من الخلق. ٢١

ان من عرف ربه بشهادة الكون يدرك حق الادراك عجز الاسباب ووجود الخالق خلفها مباشرة في غمرة حياته اليومية، والاهمية التي يوليها للاسباب ما هي في حقيقتها الا تضرعاً موجهاً نحو خالق هذه الاسباب. فالمزارع الذي يحرث ارضه بهذا الايمان والادراك يقوم في الواقع بقرع باب ربه الرزاق الرحيم وبالنسبة اليه فان التوجه بالدعاء لا ينحصر بالانسان بل ان اجتماع جميع الاسباب التي وزع عليها الله وظائفها عند خلق اي شئ ان هو الا تضرع ودعاء من الموجودات لرب العالمين. ٢٢

وانها لجريمة كبرى ان يترك المؤمنون هذا الكون الملئ بالحكم والمعاني بيد الماديين ويسكتوا على قيامهم بتجريده من معانيه وحكمه وتركه لهلوسة الصدف باسم الابحاث العلمية. فعلى كل مؤمن دَرْسَ الكون وقراءته باسم الرب على ضوء القرآن الكريم وهديه ٢٣، وهذا هو البحث العلمي بالنسبة للمؤمن. والمهمة الملقاة على عاتق كل مؤمن متمسك باحكام

القرآن هي فتح الهوة المعنوية بين الاسباب والنتائج في اي فرع من فروع العلم يعمل فيها ورؤية واظهار اسماء الله الحسنى التي تلمع خلالها باوضح شكل. وخارطة المفاهيم اعلاه تشكل عماد وهيكل هذه العلمية.

وكل شئ في الكون من اصغره الى اكبره ''الذرات، النباتات، الحيوانات، الانسان، الارض، البحار، المجرات ، النجوم وغيرها'' يجب ان يكون موضوعاً للدرس والبحث وان يقيم كمعراج للمعرفة٢٤. اي كوسيلة وسلم يؤدي الى معرفة الله . وخلال هذه الابحاث سوف تحدث اكتشافات واختراعات تكنيه من شأنها خدمة الانسان وتكون وسيلة شكر على اساس انها عطايا الهية. ومثل هذه الابحاث العلمية تؤدي الى تعريف الانسان بربه وتشكل في نفس الوقت وسيلة للسعادة في الدنيا وفي الاخرة على السواء.

---

*د. يامنة مرمر "كاتبة – باحثة :"ولدت سنة 1958 في مدينة اوران في الجزائر، وتخرجت من قسم الفيزياء النظرية بكلية الجزائر، وقد غادرت بلدها لتكملة وتطوير الأكاديمية الى انكلترا وحصلت هناك في جامعة درهام على شهادة الليسانس سنة1982 ، وعلى شهادة الدكتواره في" الفيزياء العملية "سنة – . 1985 ننقل هنا ملخص البحث الذي ألقته الدكتورة المحترمة حيث أن النص الكامل نشر في The Muslim World .- أي العلوم التي تفسر كل شيء من الناحية المادية – المترجم

١ لقد اشير في اغلب مواضيع رسائل النور الى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد بعث معلّما للانسانية يؤدي مهمة القرآن أو حللت الموضوعات في ضوء ما جاء به وعلّمه. ولا سيما الكلمة التاسعة عشرة والمكتوب التاسع عشر والمقام الاول من الكلمة الثانية والعشرين – البرهان الحادي عشر والكلمة الرابعة والعشرون – الغصن الثالث والخامس.

٢ اللمعات / اللمعة الثالثة والعشرون – الطريق الاول.

٣ الشعاعات/الخامس عشر / المقام الاول / الكلمة الثالثة.

٤ الفقرة الآت خ ذا الموالوحيثنائل النور: ان الذي يوهمَدة الاسباب ويخدهو : تبُحد الشيئين علةً للآخر عنيئاع،اد وجودهما معاً. وهذا هولذي بـ "الاقتران".

وحيث ان عدم وجود شئ ما ، يصبح علةً لعدم وجود نعمة ، لذا يتوهم المرء ان وجود ذلك الشئ هو علة لوجود تلك النعمة، فيبدأ بتقديم شكره وامتنانه الى ذلك الشئ فيخطئ ؛ لأن وجودَ نعمة ما يترتبُ على مقدمات كثيرة وشرائط عديدة، بينهما إنعدامُ تلك النعمة يحدث بمجرد انعدام شرط واحد فقط"

٥ اسس هذه المناظرة موضحة بالتفصيل في رسائل النور: المكتوب السادس والعشرين – لمبحث الاول والرابع في المسألة السادسة تحت عنوان مناظرة مع الشيطان..

٦ الله الذي خلق السموات والارض وانزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزا لكم وسخر لكلم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ''ابراهيم:٣٢'' وانظر كذلك ٢:٢٢، ٦:٩٩، ١٦:٦٥،٣٥:٢٧، ٤٣:١١،٥٠:٩

ان احدى ما تدّعيه رسائل النور أن الاسباب ليست خالقة للنتائج ويمكن تلخيص ذلك بالآتي: "هو سبحانه يخلق المسبّب والسبب معاً من علوه خلقاً مباشراً، ويوجد بينهما سببية ظاهرية وصورية ويقرن بينهما من خلال ترتيب وتنظيم.." ''اللمعات/٢٨٤''

٧ انظر ٣٠:٣٠،٢٣:٤٨، ٤٣:٣٥،٦٢:٣٣

٨ وجعل من الماء كل شئ حي ٤٥:٢٤" وانظر كذلك ٥:٢٢، ٦:٨٦ ، ١٦٤:٢ ، ٣٠:٢١، ٦٦:١٦، ٥٤:٢٥

٩ "اذا اجتمعت الاسباب المادية كافة لا يمكنها أن تجمع وتنسق جسم ذبابة واحدة وأجهزتها وفق موازين دقيقة خاصة حتى لو أوتيت تلك الاسباب ارادةً واختياراً ، بل حتى لو تمكنت من تكوين جسم ذباب وجمعه فانها لا تستطيع ابقاءه وادامته على مقداره المعين له، بل حتي لو تمكنت من ابقائه بالمقدار المعين فلن تستطيع ان تحرك بانتظام تلك الذرات التي تتجد دوماً وترد الى ذلك الوجود لتسعى فيه؛ لذا فمن البداهة أن الاسباب لن تكون مالكة لهذه الاشياء ولن تكون صاحبتها مطلقاً. انما صاحبها الحقيقي هو غير الاسباب" وانظر كذلك الكلمة الثانية والثلاثين فقد وضحت فيها هذه المسألة بمثال طويل.

١٠ ترد في القرآن الكريم آيات كثيرة تبين فيها ان المخلوقات آيات فمثلاً ١٦٤:٢ . والا الاسباب كآية ودليل الى تعريف ربنا الينا وهذا المفهوم منتشر في كل رسائل النور فمثلاً، الكلمات ٣٣٣ وكما رزينا هذه النوافذ الثلاث المفتحة على نور التوحيد في كل ذرة ففيها ايضاً شاهدان صادقان آخران على وجود الصانع سبحانه وتعالى وعلى وحدانيته.

أولهما: هو حمل الذرة على كاهلها وظائف عظيمة جداً ومتنوعة جداً، مع عجزها المطلق.

والآخر: هو توافق حراكاتها بانتظام تام وتناسقها مع النظام العام، حتى تبدو وكأن فيها شعوراً عاماً كلياً مع انها جماد.

أي أن كل ذرة تشهد بلسان عجزها على وجود القدير المطلق، وتشهد باظهارها الانسجام التام مع نظام الحكون العام على وحدانية الخالق سبحانه وتعالى" وانظر كذلك الكلمة الثلاثين - المشهد الثاني - النقطة الثانية.

١١ "وانظر كذلك ١٦:١٣، ٦١:٢٩، ٣٨:٣٩، ٩:٤٣، ١٥ ، ٨٧:٤٣ ، ١٠٥:١٢ -١٠٦".

١٢ الشعاع الخامس عشر - المقام الاول - الكلمة الحادية عشرة ومقدمة لمعات في المثنوي العربي النوري وهذه العبارة الوجيزة في رسائل النور تبين ماهية الأسباب: أجل ان العزة والعظمة تقتضيان وضع الاسباب الظاهرية ستائر امام نظر العقل، الاّ أن التوحيد والجلال يرفعان ايدي الاسباب ويردّانها عن التأثير الحقيقي" "الشعاعات/٣٢٤".

١٣ انظر الى ٦٦:١٠، ١١٦:٦، ٢٣:٥٣، ١٠٥:١٦

١٤ انظر : الكلمة الثلاثون - المقصد الثاني - النقطة الثانية.

١٥ لأجل بيان ان الله هو الخالق وحده ولا تزثير للاسباب ، وان الاسباب لا مزية لها بنفسها ولا يمكنها أن تستجيب لنا قطعاً، ترد آيات كثيرة وباساليب متنوعة: انظر "٣٥:٥٢-٣٦" و "١٣:٣٥-١٤"

وانظركذلك : ١٤:١٣، ٦٣:٥٦-٦٤، ٦٨:٥٦-٦٩، ١٩٤:٧، ٨٨ ١٧- ٢٠ ٣٥:٢٠، ٤:٤٦، ٢٦: ٧٢- ٧٣، ٢٠:٤٠ وأمثالها.ب

١٦ الكلمة الثلاثون: المقصد الاول وكذلك الثاني - النقطة الثانية.

١٧ الكلمة الخامسة والعشرون - الشعلة الثانية - النور الثاني - سر البلاغة السابع.

١٨ الكلمات - الكلمة الخامسة والعشرون / الشعلة الثانية - النور الثاني سر البلاغة السابع..

١٩ الكلمة الثالثة والثلاثون - النافذة العشرون..

٢٠ انظر: ٣:١٩١ وغيرها.

٢١ انظر: ٥١:٥٦

٢٢ المكتوب الرابع والعشرون الذيل الاول - النقطة الاولى..

٢٣ الكلمة الثالثة والثلاثون - النافذة الثامنة عشرة.

٢٤ ان القرآن الكريم يأمرنا بهذه المحاولة انظر: ٥:٣٥و ١٧:٥٧